رقصة الموت

مصطفى يعلى

سعل سعالا حادا، رشف شمالة الكاس، عب دفعة عميقة من دخان (السبسي) . زفر . أغمض عينيه المرمدتين فى انتشاء لذيذ . اتكأ على الوسادة . جمع رجليه داخل جلبابيه الصوفيين ، وادخل يديه فى جيبيهما وزرعهما بين اليتيه . تكوم كالعنكبوت ، وجعل يدمدم مع حساك عتيق يصدر ألحانا أندلسية بصوت متكسر .. شمس العشي، ، قد غربت .. واستغربت .. واستغربت .. واستغربت .. واستغربت . ثم راح يغط

الدخان انعوان متراقص فى فضاء الدكان . الدخان والغبار والرطوبة والعناكب تغلف الاشياء بغلالة شفافة مقيتة . السلاسل الحديدية المدئة والثريات الهرمة تبعث الخوف فى النفس .. زجاجات وكؤوس متناثرة هنا وهنا ذات أشكال مختلفة لا تنتمي الى عصرنا . صور ملونة بالوان بدائية ، سيدنا على يشطر بسيفه راس الغول الى قسمين ، مولاى عبد القادر الجيلالى يشد على كتاب تحت ابطه وبجانبه يربض اسد وديع .. امراة سمينة عارية تماما انقضت عليها الصقور تنهش جسمها الطرى بشراهة تماثيل فقدت ملامحها ، واخرى عابسة نظراتها تعكس الشعور الدفين بالقلق غربان وجوارح محنطة . فى وضع متربص . فئران تتقافز من هنا وهناك . عود معلق فى الجدار النيلى ، وبجانبه كمان وطبول ودفوف ومزامير. اكياس عليها رسم العلم الامريكى . شمعدانات ، رقع شطرنج،وكتب صفراء، وسلالم مكسورة ، وساعات كثيرة معطلة .. وادوات واشياء كبيرة متراكمة داخل الدكان بشكل فوضوى يستفز الاعصاب .

تململ .. الاسطوانة لا تزال تدور .. واستغربت .. واستغربت ؟؟ واستغربت .. فتح عينيه قليلا . صب الشاى من (البراد) . اشعل السبسي. ملا صدره بالدخان ، وعب من الكاس بفم خال من الاسنان . ادار بؤبؤى عينيه فى محتويات الدكان بكثير من الحنو . لا يرى الا الاشياء القريبة منه، واما الباقى فهو بحيرات من العتمة واسباح مغبشة تتراقص على ضوء الشمعة الباهت .. عناكبى العزيزة ، اينك تتضاحكين ، تعالى ، هكذا ..

هل هناك دباب كثير ؟ هل هناك حشرات ؟ شبعت ياعفريتة ؟ ارقصي هكذا تحامل على نفسه وقف على رجل آدمية وأخرى خشبية . تناول مزمارا . وشرع يعزف لحنا قديما ويرقص بطريقة قرقوزية .. التماثيل تتراقص. الكمان يعزف . الزجاجات تتراقص . الطبول تدق . الثريات تتراقص . العود يوقع الصقور والغربان تنعق . الاسطوانة تدور .. هكذا . هكذا .. ارقصوا جميعا يهتز، يلهث، ينهج الكل يرقص الدكان كله يرقص .. الساعات وحدها تتفرج بعرونها المخورة .. أرقصي انت أيضا .. أيتها السلاسل الغليظة .. أيتها السبعون ذراعا . هيا الهيا الساعلت تتضاحك كثيرا من المقت .

توقف عن العزف والرقص ، فعاد السكون البارد الى محتويات الدكان باستثناء الاسطوانة ، فلم تتوقف من الدوران .. واستغربت .. واستغربت .. واسغربت .. انت أيتها الساعة مالك لا ترقصين ولا تغنين ؟ قولي ، أنت . نعم أنت أيتها الساعة المزخرفة كالعروس . ألم أنقدك من صاحبك بدريهمات معدودة بعد افلاسه ؟ أليس كذلك أيها الغراب ؟ وانت نفسك ياأسود الوجه لولاى لما فزت بهذه الخانية الطرية .. هيا ، هيا .. ارقصوا وغنوا ليلى ياليلى .. ياليلى ياعيني .. الاشياء تهتز تتداخل فيما بينها . تتغبش ..

قطع غناءه وتوقف عن الرقص عيون مولاى عبد القادر تنظر اليه متعجبة . فم مولاى عبد القادر يقهقه فى استهزاء .. وأسده أيضا يقهقه تعلق قلبه وبصره بالصورة سيدى مولاى عبد القادر الجيلالى نفعنا الله ببركتك، اذا حملت زوجتى وولدت فسأذبح لك ثورين وخمسة اكباش ، وأقيم لسادتنا جيلالة ليلة ليلاء .. هيا ياجارية انيرى الشمعدانات والثريات ، وأملئى هذه الكؤوس وأديرها على سادتنا .. هيا .. الله حى .. الله حى حى الله .. حى اللـه .. اللـه حى . اللـه حى . اللـه حى . وزلزت ارض الدكان . وعادت جدرانه ودارت . فهوى وسط الدكان ، وارتبكت الاشياء القديمة وتساقطت فوقه وحواليه ...

ذبالة الشمعة تحتضر . تهتز اهتزاز الدجاجة فور ذبحها . كل محتويات الدكان ترتعش بظلالها المتداخلة .. انطفأت الذبالة ، فتوقف كل ما فى الدكان عن الحركة وكانت الاسطوانة لا تزال تحشرج : واستغربت واستغربت ...